

إشكالية المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية رصد للتمظهرات ومساءلة في علل الاضطراب - التجربة الجزائرية نموذجاً-

أ. نور الدين كوسة

جامعة سطيف 2

الملخص:

تأتي هذه المداخلة لإبراز تحديات ومظاهر اضطراب المصطلح الأنثروبولوجي في الأبحاث والدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، من خلال رصد بعض النماذج المصطلحية المتداولة في هذه الدراسات، والوقوف على أبعادها الإبستمولوجية، من خلال استعراض علل هذا الاضطراب، بمساءلة الخلفيات التاريخية والمعرفية، التي أثّرت بأشكال مختلفة ومن زوايا متعددة في خلق هذا الاضطراب والتضارب على مستوى المنظومة المصطلحية المتداولة في هذه الدراسات.

Résumé:

L'objectif que nous visons à travers cette communication est de faire ressortir les dysfonctionnements et les lacunes de la terminologie anthropologique; et ce, à partir d'exemples de termes utilisés dans les études anthropologiques algériennes. Nous proposons aussi de faire un arrêt sur ses dimensions épistémologiques, puis un exposé de ces dysfonctionnement en interrogeant les données historiques ainsi que les causes objectives qui ont influencer et contribuer sous différents aspects à l'apparition et au développement de tels dysfonctionnements au niveau du système terminologique utilisé dans ces études.

مقدمة:

على اعتبار أنّ الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر تعد من ضمن التخصصات العلمية المستحدثة في المنظومة التعليمية الجامعية بفعل مجموعة من العوامل الأكاديمية والتنظيمية، ولكون الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته بما تشتمل عليه من نظريات وأنساق معرفية ذات منشأ غربي محض، من خلال الإسهامات المعرفية الأمريكية والبريطانية في المرحلة الأولى وبقية البلدان الأوروبية في مرحلة لاحقة، فإن دخول الدراسات الأنثروبولوجية إلى حيز الممارسة العلمية في الجزائر بعد الاستقلال جاء متأثراً بالقوالب الأكاديمية الغربية الجاهزة، بما تشتمل عليه من طروحات نظرية ومنظومة مصطلحية.

وقد كان لهشاشة التجربة الجزائرية في هذا الحقل العلمي الجديد- الأنثروبولوجيا- بالإضافة إلى كون المتخصصين المحليين على قلتهم قد تأثروا بالتوجهات النظرية للجامعات الغربية التي تتلمذوا فيها، الأنجلوفونية الممثلة في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، والفرانكفونية الممثلة على وجه الخصوص في فرنسا، حيث كان لهذه العوامل الأثنية الذكر دور لا يستهان به في تشعب المنظومة المصطلحية المتداولة في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر.

وفي هذا الإطار تأتي هذه المداخلة كمحاولة نسعى من خلالها إلى إبراز تجليات ومظاهر الاضطراب والتضارب في المصطلح الأنثروبولوجي، من خلال رصد بعض التماذج والأمثلة المصطلحية المتداولة في الدراسات الأنثروبولوجية الجزائرية، والوقوف على أبعادها الإبيستمولوجية، ثم استعراض علل الاضطراب بمسألة الخلفيات التاريخية والأسباب الموضوعية التي أثّرت بأشكال مختلفة ومن زوايا متعددة في خلق هذا الاضطراب والتضارب على مستوى المنظومة المصطلحية المتداولة في هذه الدراسات.

وقبل الخوض في الحديث عن هذه الإشكالية يجدر بنا التطرق بشيء من الاختصار إلى مسألة تحديد وترجمة المصطلحات في العلوم المختلفة، بالتركيز على العلوم الإنسانية والاجتماعية على وجه الخصوص، والوقوف على نتائج وتداعيات تحييز مصطلحات هذه العلوم، ثم الانتقال إلى الحديث عن واقع التجربة الجزائرية في مجال الدراسات الأنثروبولوجية، باستعراض خلفيات تأخر اعتماد هذا التخصص في المنظومة التعليمية الجامعية، وصولاً إلى إبراز الجهود المتبعة لتدارك هذا التأخر.

1- إشكالية تحديد وترجمة المصطلحات في العلوم المختلفة:

يكتسي موضوع المصطلحات أهمية كبرى في مختلف العلوم، وبفعل هذه الأهمية صار علما قائما بذاته والذي يعرف بالمصطلحية أو علم المصطلحية - terminologie -¹، والذي يهتم بالمصطلحات المتخصصة في مجال علمي معين، على اعتبار أنّ التفاهم بين الأفراد والجماعات حول مختلف القضايا العلمية والعملية إنما يتم وفق مجموعة من المصطلحات التي يبنون عليها تواصلهم، ومن هذا المنطلق فإنه لا يمكن إهمال العناية بتحديد أو ضبط المصطلحات في شتى المجالات العلمية والعملية، لما لها من أثر مباشر في تنظيم وضبط التعامل والتواصل في الحياة العملية، ومن إسهامات فعالة في صياغة النظريات وبناء المناهج والتماذج في الحياة العلمية.

ولعلّ من الملاحظات التي تسترعي الانتباه ضمن هذا السياق أن العلوم الطبيعية والدقيقة لا يشكو المتمين إلى تخصّصاتها من التضارب في تحديد وضبط المصطلحات أو ترجمتها من وإلى لغات أخرى، نظرا لخصوصية هذه العلوم بحكم عدم تأثير عامل الانتساب الثقافي وما يشتمل عليه من إبعاد نفسية وخصوصيات اجتماعية وحضارية للمتخصصين فيها في تشكيل المنظومة المصطلحية لهذه العلوم، بالإضافة إلى كون التجارب والنظريات في العلوم الطبيعية والدقيقة مضبوطة إلى حد كبير مقارنة بالعلوم الأخرى، لذا فإن ضبط

مصطلحاتها أو نقلها إلى لغات أخرى يعدّ من المسائل اليسيرة، والتي لا يترتب عنها خلاف إستمولوجي أو جدل ثقافي كبير، وبرغم ذلك لا يمكن التّهوين من بعض العقبات التي تعترضها أحيانا، فهي عملية مخفوفة بالمخاطر والمزالق².

وبخلاف العلوم الطّبيعية والدّقيقة فإن العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لا تخضع لنفس المنطق، إذ تشكو هذه الأخيرة من تمايز حاد في تحديد المصطلحات المتعلّقة بها، سواءا من حيث البناء أو من حيث التّوظيف أو خلال التّرجمة من وإلى لغات أخرى، ومن ضمن الإشكاليّات المطروحة بحدّة ضمن هذا السياق على وجه الخصوص ما يتعلق بتحيّز مصطلحات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، حين تتمّ ترجمتها من اللّغات الأجنبية إلى اللّغة العربيّة، وقد أثارَت هذه المسألة جدلا كبيرا بين المشتغلين والمهتمّين بالمصطلحيّة في الوطن العربي، من خلال محاولة البحث في الأسباب المباشرة لها واستظهار الدّعايات والمزا لق المعرفيّة المترتّبة عنها.

إن قضية تحيّز مصطلحات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة المترجمة إلى اللّغة العربيّة المقصود بها هو تلك التّحيّزات الكامنة في كثير من المصطلحات المستخدمة في هذه العلوم، بل وفي إدراكنا للكون ووصفنا لواقعنا وذروته تكمن في هيكَل هذه المصطلحات وتوجّهها العام³، ويبدو أن احد الأسباب المباشرة لها هو استخدام مصطلحات نحتها الغير من وجهة نظره، والتي تعبّر عن رواية ومنظور ومفاهيم غربيّة، إذ يعكف الكثير من الدّارسين والباحثين في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة إلى استيراد مصطلحات من الخارج دون إعمال فكر أو اجتهاد ودون فحص أو تمحيص، ويمكن الوقوف على تداعيات ونتائج هذا التّحيّز في المصطلحات الغربيّة وما يترتب عن استعمالها واستعارتها أو نقلها المباشر من خلال التّرجمة إلى اللّغة العربيّة ضمن نقطتين أساسيتين:

أ- التّبعيّة الفكرية: تشكّل التّبعيّة الفكرية إحدى أهم تداعيات توظيف واستعارة مصطلحات الآخر- الغرب- ضمن العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة للدّلالة على معطيات ومفاهيم متّصلة بواقعنا، لكون المصطلحات تحمل مضامين ورسائل فكرية معبّرة عن الانتماء الحضاري للبيئة التي نشأ فيها، ومن هنا فإنّ توظيف مصطلحات الطّرف الأقوى في المعادلة الثقافيّة والذي يخضع لمنطق الغالب والمغلوب هو شكل من أشكال التّبعيّة والتي تعدّ إحدى مظاهر العولمة الثقافيّة، من خلال هيمنة ثقافة القوي سياسيا واقتصاديا وذوبان جميع الثقافات الأخرى فيها، ومعنى آخر فرض نموذج ثقافي موحّد على كل المجتمعات⁴.

ب- العجز على قراءة الواقع ومتغيّراته: مادامت المصطلحات المنقولة إلى اللّغة العربيّة قد نشأت في مناخ سوسيو ثقافي مغاير للطّرف المنقول إليه، بحيث تعكس تصوّرات ومفاهيم المجتمع والبيئة الحضاريّة الأصليّة له، فإنّ هذه المصطلحات دون شك سوف تناقض الواقع السوسيو ثقافي للبيئة الاجتماعيّة المستقبلية بما ينطوي عليه هذا الواقع من أسس وإبعاد نفسيّة واجتماعيّة، مما يؤدّي حتما إلى "فقدان السيطرة على هذا الواقع والمقدرة على التّعامل معه بكفاءة"⁵، بل العجز على فهم متغيّراته نظرا للبعد المحوري الذي تشكّله

المصطلحات من حيث ضبطها للتعامل في الحياة العلمية، وبناء النظريات والمناهج وقراءة الواقع ومتغيراته الاجتماعية والثقافية.

2- واقع التجربة الجزائرية في مجال الدراسات الأنثروبولوجية:

من الملاحظات التي تسترعي الانتباه من خلال الإطلاع على التجربة الجزائرية في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، أنّ هذا النوع من الدراسات يشكو من قلة المتخصصين فيه نظرا لحداثة وقصر المدة الزمنية له -الدراسات الأنثروبولوجية- ضمن الممارسة العلمية الأكاديمية داخل الجامعة الجزائرية في إطار بحوث وأعمال أكاديمية منظمّة، وكذلك على مستوى الدراسات والأبحاث وحتى التأليف الفردية المستقلة في المحيط الثقافي العام خارج الجامعة، إذ لم تزد المدة الزمنية التي صارت فيها الأنثروبولوجيا كتخصص علمي قائم بذاته يدرّس في الجامعة الجزائرية عن ربع قرن.

وقد جاء الاعتراف بهذه المادة الدراسية مع تنصيب أول معهد وطني للثقافة الشعبية بجامعة تلمسان⁶، وذلك بناء على مرسوم صادر في 18 أوت 1984⁷، وتجدد الإشارة أن اعتماد الأنثروبولوجيا لم يتم منذ البداية مع تنصيب معهد الثقافة الشعبية، بل جاء تنويجا لعدد من الخطوات والمراحل التي قطعها هذا المعهد، ففي البداية أوكلت له مهمة الاهتمام بالثقافة الشعبية بشكل عام كتخصص أولي، ثم جاء الاعتراف سنة 1990 بالأدب الشعبي كاختصاص قائم بذاته، لينتهي الأمر بالاعتراف بشعبة الأنثروبولوجيا⁸.

وقد عرفت الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر مع بداية هذا القرن وثبة وانتعاشا يميزين بعد مرحلة التردّد التي واكبت فترة الإقلاع خلال عقد التسعينيات من القرن الماضي، حيث كان هذا التخصص مقتصرًا على جامعة تلمسان دون غيرها من الجامعات الأخرى، وتوّج هذا الانتعاش بفتح أقسام ما بعد التدرّج -ماجستير والدكتوراه- في كل من جامعتي وهران وقسنطينة، ثم تلتها خطوات أخرى تمثلت في اعتماد أقسام مستقلة في مرحلة التدرّج في كل من المركزين الجامعيين بخنشلة وتبسة، وبالمركز الجامعي بالبيضاء في مرحلة لاحقة.

ويمكن إرجاع الخلفيات التي وقفت وراء تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا في الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال إلى عاملين أساسيين:

أ) الاهتمام بالعلوم الدقيقة على حساب العلوم الاجتماعية بفعل الحاجة إلى التنمية: لقد اتّجهت الجامعة الجزائرية بعد الاستقلال بفعل الحاجة إلى التنمية -وبحسن نية- نحو العلوم الدقيقة والعلوم الطبيعية، في حين تمّ إهمال العلوم الاجتماعية والإنسانية ومنها الدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، إذ لم تحض بنفس العناية والاهتمام الذي حظيت به العلوم الدقيقة وهو ما انعكس سلبا على مردودها ومستواها، فجزائر الاستقلال ورثت عن الاستعمار الفرنسي اقتصادا منهكا ومجتمعًا متخلفًا وحصيلة ثقيلة من المظاهر السلبية

على جميع الأصعدة والمستويات، إضافة إلى النقص الفادح في الإطارات العلمية المؤهلة للنهوض بمشاريع التنمية وهيكلية الاقتصاد المنهك.

ووفق هذه الظروف كانت الحاجة إلى التنمية الاقتصادية بالدرجة الأولى وما يترتب عن ذلك من ضرورة الإسراع في تحسين الأوضاع تقتضي إقحام الجامعة في هذه العملية، لأنها تمثل ركيزة أساسية في بناء الأفراد الفاعلين، من خلال إعداد الإطارات الفنية والكفاءات العلمية، وقد انعكس ذلك بشكل مباشر على برامج التكوين، إذ حظيت التخصصات ذات الصلة بالعلوم الدقيقة والطبيعة برعاية خاصة من قبل الهيئات القائمة على الجامعة، في حين كان يبدو أنّ التخصصات ذات الصلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية ومنها الأنثروبولوجيا ليست ذات أولوية، إذ لم تنل الاهتمام كما دة دراسية في الجامعة الجزائرية "وبقيت كامنة لا تظهر إلا في مقاربات ثقافية لدراسة الظواهر السوسولوجية"⁹.

اقتران الأنثروبولوجيا بالتوجه الاستعماري: إنّ فكرة اقتران الأنثروبولوجيا بالتوجه الاستعماري تعدّ من ضمن العوامل الأساسية التي أسهمت في تأخر اعتماد الأنثروبولوجيا كتخصص علمي ضمن المنظومة التعليمية في الجامعة الجزائرية، إذ أنّ من المفارقات الأساسية التي يمكن تسجيلها ضمن هذا السياق هو وجود تشابك وتقاطع بين اهتمامات الدراسة الأنثروبولوجية من جهة والأهداف الاستعمارية من جهة أخرى، لكون إحدى أساسيات "البحث الأنثروبولوجي تكمن في دراسة الآخر، أو ما يعرف بالبحث في الغيرية "altérité"

10

ولعلّ هذا ما جعل المتصفّحين للكتابات والدراسات الأنثروبولوجية يلمسون ذلك التلازم بين الأنثروبولوجيا والتوجهات الاستعمارية، وهكذا فقد تضمّنت أغلب الكتابات إشارة إلى هذه الجدلية أي التلازم بين الأنثروبولوجيا والاستعمار¹¹، على اعتبار أن مجالها هو البحث في الخصوصيات الثقافية والاجتماعية، وهذا الأمر قد يثير مشاكل وحساسيات قد تعيق مسيرة التنمية، حيث أصرت الهيئات العلمية القائمة على الأمور الأكاديمية في الجزائر بعد الاستقلال التي كانت حاملة لهذا التصور السلبى عن الأنثروبولوجيا من حيث كونها علم استعماري على استبعادها من المنظومة التعليمية الجامعية.

حيث ورد في توصيات الملتقى الدولي حول "إصلاح وتقنية تعليم العلوم الاجتماعية وإشراكها في التطور الاقتصادي وإعادة هيكلتها"، المنعقد في الجزائر في شهر مارس 1971 على ضرورة: "أن تتخلّص العلوم الاجتماعية في البلدان التي أستمّرت في القلم من منازعات الماضي الاستعماري، فقد أستمّلت العلوم الاجتماعية - المقصود هو الأنثروبولوجيا - في هذه البلدان بطريقة علمية لتستعيد وتُسَلِّب وتُزِيل الهوية"¹².

3) رصد لتجليات اضطراب المصطلحات الأنثروبولوجية:

إنَّ الإشكالية التي نحن بصدد الكشف عن حيثياتها تكمن في إبراز تجليات ومظاهر الاضطراب والتضارب في توظيف المصطلحات في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر من خلال رصد بعض التماذج والأمثلة من هذه المصطلحات المتداولة، والوقوف على السياقات التي يتجلى من خلالها هذا الاضطراب، حيث تطرح عملية الترجمة أو تعريب مصطلحات الأنثروبولوجيا أو توظيفها المباشر علامات استفهام تلفُّ مسألة ملائمة هذه المصطلحات للمعنى الحقيقي والسياق التداولي للمصطلح في اللغة الأصلية، بالموازاة مع مراعاة مسألة السلامة النحوية والدلالة الاشتقاقية والرّصانة المعرفية في اللغة العربية المترجمة إليها.

وسوف نقتصر هنا على ثلاث مصطلحات أساسية وهي **الإنثوغرافيا، الإنثولوجيا والأنثروبولوجيا**، والتي تعدّ من المصطلحات المفتاحية في الدراسات الأنثروبولوجية، إذ عندما يبلغ الأمر هذه المصطلحات الثلاثة على التوالي- **الإنثوغرافيا، الإنثولوجيا، الأنثروبولوجيا**- فإنَّ المسألة تضحى أشدَّ تعقيدا، والكلمة العربية الملائمة أصعب منالا أو أعصى على الفهم أو مفتقدة للدقة العلمية أو المفهومية، ويبدو أن تجليات اضطراب هذه المصطلحات في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر تتمظهر في ثلاث صيغ أساسية:

فبالنسبة **للصيغة الأولى** يُوظف كثير من الباحثين الجزائريين بعض المصطلحات المعربة كمقابل لهذه المصطلحات السابقة، فمصطلح **"الإناسة"** يستعمله البعض ويقترحه البعض الآخر كمقابل **للأنثروبولوجيا**، كما ينسجوا على منواله مصطلحي **"سلالة"** و**"عراقة"** ليكونا مقابلين على التوالي لكلّ من **الإنثولوجيا** **الإنثوغرافيا**، وما يلفت انتباه القارئ أنّ توظيف هذه المصطلحات السابقة - إناسة، سلاله، عراقة- كبديل للمصطلحات الأصلية الأنثروبولوجيا الإنثولوجيا والإنثوغرافيا، ليس مقصورا على الباحثين الجزائريين في مجال الدراسات الأنثروبولوجية وحسب، بل نجد عدد من المترجمين العرب لبعض الكتب المتخصصة في الأنثروبولوجيا وكذلك الكتب الخاصة بالمنهجية يأخذون بهذا التوظيف¹³.

وان كان ذلك يعتبر من ضمن المحاولات الجريئة التي تعكس جدية هؤلاء الباحثين ورغبتهم في إضفاء الدقة العلمية واللغوية على هذه المصطلحات من جانب، وتعكس من جانب آخر الإمكانيات التي تتمتع بها اللغة العربية من حيث قدرتها على تصوّر المصطلحات وإيجاد الدلالات الملائمة لها من جانب آخر، فإنّه من الجدير بالباحثين أن يترقّوا في اعتماد هذه المصطلحات وأن يُخضعوها إلى مزيد من التّحقيق والمناقشة قبل اتّخاذ مبادرة توظيفها واعتمادها بصورة نهائية، والتأكّد إذا ما كانت هذه المصطلحات ملائمة علميًا ومفهوميًا ودلاليًا.

ولعلّ من السّليبيات المترتبة عن عملية توظيف هذه المصطلحات بالصيغة المذكورة سابقا، هو وقوع غموض والتباس كبيرين خلال ورودها- هذه المصطلحات- في النصوص والكتابات، مُعرّفة بالألف واللام، حيث ترد بلفظ **الإناسة** و**السلالة** و**العراقة**، ويزداد الأمر غموضا أكثر بالنسبة للمصطلحين الأخيرين - **السلالة** و**العراقة**

– وعلى سبيل المثال أن نقول "تتلم السُّلالة بدراسة السلالات البشرية" أو "تتلم العرافة بالدراسة الوصفية للأعراق"، أو "تتلم الأعراق من اهتمامات السُّلالة"، وغيرها من الأمثلة.

وهناك صيغة ثانية يميل بعض الباحثين الجزائريين إلى اعتمادها وهي تقديم المصطلحات الثلاثة المذكورة آنفاً- إناسة، سلالة، عرافة- بإضافة كلمة "علم" حيث ترد بصيغة "علم الإنسان" مقابل الأنثروبولوجيا و"علم السلالات" و"علم الأعراق" ليكونا مقابلين على التوالي للأنثولوجيا والآنثوغرافيا، غير أن اعتماد هذه المصطلحات بهذه الصيغة الأخيرة قد ترتب عنه إشكال جديد حيث يُوحى كل مصطلح من هذه المصطلحات الثلاثة وفق هذه الصيغة بأنه يمثل علم قائم بذاته ويؤدي إلى تصوّر استقلالية هذه المصطلحات بعضها عن بعض، وهو ما يخالف بالمضامين النظرية والمنهجية للأنثروبولوجيا كتحصص علمي قائم بذاته.

على أساس أنّ هذه المصطلحات – الإنثوغرافيا، الإنثولوجيا، الأنثروبولوجيا – لا تعتبر علوم مستقلة عن بعضها البعض، بل هي متكاملة وواقعة تحت مضلة البحث الأنثروبولوجي مثلما يشير إلى ذلك الأنثروبولوجي الشهير كلود ليفي ستروس بقوله: "لا تشكّل الإنثوغرافيا والإنثولوجيا والأنثروبولوجيا، ثلاثة فروع علمية مختلفة، أو ثلاث تصوّرات مختلفة لنفس الدراسات، إنّما هي الواقع ثلاث مراحل أو ثلاث لحظات في البحث نفسه، وتفضيل هذا التعبير أو ذاك، إنّما يعكس فقط إنشداد الانتباه ناحية نمط من الأبحاث دون استبعاد التّمتطين الآخرين مطلقاً"¹⁴.

فالإنثوغرافيا هي المرحلة الأولى من البحث الأنثروبولوجي ويغلب عليها طابع الوصف، في حين أن الإنثولوجيا تمثّل المرحلة الثانية وهي مرحلة المقارنة، وتأتي الأنثروبولوجيا في المرحلة الثالثة والأخيرة وهي مرحلة التحليل¹⁵، وبرغم اختلاف المدارس الأنثروبولوجية الغربية حول مسألة اعتماد أيّا من هذه المصطلحات، فإنّها بمقابل ذلك لا تعتبرها علومًا مستقلة عن بعضها البعض.

أما الإشكال الثاني فيتعلق بكلمة "علم" المضافة إذ يبدو بالنسبة لمصطلح علم الإنسان كمقابل للأنثروبولوجيا أنه مجرد ترجمة حرفية لها، هذه الأخيرة – الأنثروبولوجيا- التي تستمدّ تسميتها من أصول يونانية والمركبة من مقطعين هما: (أنثروبوس anthropos)، ومعناه الإنسان و(لوجوس logos)، ومعناه العلم¹⁶، ولكن الأنثروبولوجيا في حقيقتها ليست علم الإنسان بل هي علم عنه، وهنا يكمن الخلل والحال نفسه بالنسبة لمصطلحي علم السلالات وعلم الأعراق.

وحينما نتساءل عن حقيقة هذا العلم وعن ماهيته وميادينه يتراءى في أذهاننا الجواب وتشكّل إمام نظرنا الصّورة، دون القدرة على إيجاد العبارة الملائمة بين ما نراه وماذا نسمّيه، ولا يمكن أن تكون اللّغة هي العاجزة هنا، بل ربّما يعود الأمر إلى عدم ووضوح الأبعاد الإستمولوجية لهذا التخصص ذي الأصول الغربية، ومن هنا يحقّ لنا أن نتساءل مرة أخرى هل يمكن اعتماد مصطلح علم الإنسان كمقابل للأنثروبولوجيا وعلم السلالات وعلم الأعراق على التوالي مقابل الإنثولوجيا الإنثوغرافيا؟.

أما الصيغة الثالثة والأخيرة فهي استعارة هذه المصطلحات الثلاثة أي- الأنثروبولوجيا، الإثنولوجيا، الإثنوغرافيا- وتوظيفها بشكل مباشر دون ترجمة أو تعريب، من خلال الحفاظ على سياقها التداولي الأصلي الذي استعيرت منه، ولكون هذه المصطلحات تشكو من الاختلاف والتباين فيما بينها، تبعاً للتوجهات العامة للمدارس الأنثروبولوجية بفعل الدوافع النظرية التي بنيت عليها هذه المصطلحات، فقد ترتب عنها تضارب على مستوى السياق التداولي داخل الفضاء الثقافي الجديد الذي انتقلت إليه هذه المصطلحات. فما يسمّى إثنولوجيا وفق التقاليد الفرنسية يسمّى أنثروبولوجيا لدى البريطانيين والأمريكيين، وما يُطلق عليه أنثروبولوجيا اجتماعية بريطانية مستقلة وقائمة بذاتها، يعتبر في العرف الأكاديمي الأمريكي جزءاً لا يتجزأ من الأنثروبولوجيا الثقافية، والأمر نفسه بالنسبة للإثنولوجيا والإثنوغرافيا من خلال اعتبارها مرحلتين من مراحل البحث الأنثروبولوجي لدى كثير من الباحثين الأنثروبولوجيين، بمقابل إدراجهما كفرعين من فروع الأنثروبولوجيا الثقافية وفق التقاليد الأنثروبولوجية الأمريكية وهكذا¹⁷.

4-مسألة في علل الاضطراب:

بعد إبراز الصيغ التي يتجلى من خلالها اضطراب المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر من خلال استعراض بعض النماذج والأمثلة، ننتقل إلى مسألة علل هذا الاضطراب والبحث في أهم الأسباب والخلفيات التي تقف وراء ذلك، والتي يمكن إدراجها ضمن العناصر الآتية:

أ- غياب مؤسسات أكاديمية مهتمة بحقل المصطلح: إنّ من ضمن الأسباب التي تقف وراء اضطراب المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، إنّما يعود في جانب رئيسي منه إلى غياب مؤسسات أكاديمية متخصصة ومهتمة بحقل المصطلح في العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل عام، والدراسات الأنثروبولوجية على وجه الخصوص، وذلك لكون أغلب الأعمال المنجزة والدراسات المترجمة في بالأنثروبولوجيا لم تتم تحت وصاية مؤسسات أكاديمية متخصصة في حقل المصطلح، إنّما هي ثمرة لمجهودات فردية لمجموعة من الباحثين كل على حدة.

ومن هنا تأتي الحاجة إلى مثل هذه المؤسسات المهتمة بحقل المصطلح والتي تضم نخبة من الباحثين الأكفاء والمتخصصين في المسائل اللغوية وقضايا الترجمة، بحيث تتبني هذه المؤسسات عملية وضع وتصنيف المصطلحات أو ترجمتها، وفق خطة وبرنامج عمل مدروس يراعي المسائل اللغوية والتقنية للمصطلح، وكذا الأبعاد المعرفية للمادة المترجمة.

أ- التبعية في مجال التصورات النظرية: تقف مسألة التبعية في مجال التصورات النظرية الخاصة بالدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، وراء تضارب واضطراب المصطلح الأنثروبولوجي، ولاشك أنّ التبعية في مجال التصورات النظرية المتعلقة بالدراسات الأنثروبولوجية بشكل خاص والعلوم الاجتماعية بشكل عام ليست مشكلة تخصّ بلد كالجزائر وحسب، بل الأمر يتجاوز الحدود الإقليمية الضيقة ليشمل البلاد العربية ككل،

ومادامت الأنثروبولوجيا تعدّ من العلوم الغربية الحديثة، فإنّ انتقالها إلى بقية البلدان الأخرى ومنها الجزائر، ودخولها إلى حيز الممارسة العلمية قد جاء متأثراً بالقوالب النظرية الجاهزة للمدارس الغربية. إنّ هذا التأثير يتمثل في محاولة فهم المجتمع الجزائري انطلاقاً من نظريات غربية قائمة على النزعة التطورية والانتشارية، التي تحاول تفسير المجتمع في علاقته وتأثيره بالثقافة الأوروبية¹⁸، ووفق هذا المنحى فإن الباحثين المحليين يقرؤون مجتمعاتهم وخصوصياتهم الثقافية والاجتماعية بأعين غيرهم، مما يؤدي إلى اهتزاز نتائج هذه الدراسات وإلى هشاشتها، إذ تنماشى ظهور النظريات الاجتماعية عامة ونظريات علم الاجتماع والأنثروبولوجيا خاصة مع الأحوال الاجتماعية والسياسية التي وجدت فيها الشعوب الأوروبية¹⁹. ولاشك أنّ التبعيّة في مجال التّصورات النظرية من خلال محاكاة النظريات الغربية في الدراسات الأنثروبولوجية المحلية، قد ترتّب عليها توظيف شامل للمنظومة المصطلحية التي تقوم عليها هذه النظريات بما تشتمل عليه من أدوات ومفاهيم إجرائية.

ج- الميول الفكرية للباحثين الأنثروبولوجيين في الجزائر: إنّ الباحثين الجزائريين في ميدان الأنثروبولوجيا على قلتهم²⁰، قد تأثروا بالتوجهات النظرية للمدارس الأنثروبولوجية الغربية، بما تنطوي عليه من أبعاد منهجية ومنظومة مصطلحية، سواء من خلال الدراسة بالجامعات الغربية أو من خلال الإطلاع على تياراتها الفكرية والنظرية وأعمال روادها، عن طريق الكتابات أو الاحتكاك المباشر بالباحثين الغربيين من خلال الملتقيات الدولية والترتصات التكوينية بالخارج.

إنّ التمايز والاختلاف الذي وقع على مستوى المدارس الغربية لاختيار المصطلح الأنثروبولوجي الملائم، وفق ما ينطوي عليه من دلالات نظرية تعكس الخلفيات الإستيمولوجية لكل مدرسة من هذه المدارس، كان له انعكاس مباشر على مستوى المنظومة المصطلحية المتداولة في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، بفعل محاولة الباحثين استعارة المصطلحات الخاصة بمدرسة معينة، أو انتقاء بعض منها وفق إرادة الباحثين وميولهم الفكرية لإحدى هذه المدارس، والممثلة على وجه الخصوص في المدرسة الاجتماعية البريطانية والمدرسة الثقافية الأمريكية والمدرسة الفرنسية التي ظهرت متأخرة عن سابقتها ومتأثرة بعلم الاجتماع.

الخاتمة:

في نهاية هذه الورقة العلمية وكخلاصة لما سبق استعراضه من أفكار متعلّقة بإشكالية المصطلح في الدراسات الأنثروبولوجية في الجزائر، جدير بنا أن نشير إلى مجموعة من النقاط التي تمثّل حصيلة هذه المعالجة:

- إنّ الأبعاد المترامية التي بلغت الأنثروبولوجيا في البلدان الغربية، وما تبعها من تبلور في اهتماماتها، بمقابل حداثة هذا التخصص في البلدان العربية ومنها الجزائر على وجه الخصوص يلقي بتبعات إضافية في انتقاء المصطلحات المحيطة بتلك الأبعاد.

- ينبغي أن نتفتح للغة العربية على المصطلحات الأجنبية حتى تضمن مواكبة التخصصات العلمية الحديثة، وتتجنب الانغلاق على مفرداتها الكلاسيكية خوفاً عليها من الاندثار، إذ لا يشكل اعتماد المصطلحات الأجنبية كما هي حرجاً بالنسبة للغة العربية، بدليل أن أغلب لغات العالم الحية تستقبل وتستوعب وتمثل التسميات والمصطلحات القادمة من لغات العالم الأخرى، الأمر الذي يضمن ثراء المخزون المعرفي لهذه اللغات وتتوزع مصادره ومواكبه للتطورات والمستجدات العلمية.

- بعيداً عن التبني المطلق أو الرفض النهائي لهذا المصطلح الأنثروبولوجي أو ذاك، فإن معالجة هذه الإشكالية إنما يتم بطرح التساؤلات المناسبة عن مدى ملائمة أيّاً من هذه المصطلحات، وإحاطتها الشاملة أو التفصيلية بالعلم المعني، لتجنب التداخيات السلبية التي قد تعصف بالتعريفات النهائية لها، وما تستبطنه من اطر وأبعاد نظرية ومنهجية.

الهوامش:

- (1)- للتعمق أكثر في المسائل المتعلقة بعلم المصطلحية والعلاقة بين المفاهيم والمصطلحات انظر على سبيل المثال لا الحصر: leart (pierre), les langues spécialisées, puf, Paris, 1995.
- (2)- المسيري (عبد الوهاب) وآخرون، فقه التحيز، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط3، 1998، ص97.
- (3)- المرجع نفسه، ص67.
- (4)- حول مسألة العولمة والهيمنة الثقافية انظر:
- العسكري (سليمان إبراهيم)، استحالة الهيمنة ثقافياً، مجلة العربي، الكويت، العدد562، سبتمبر2005، ص10، 11.
- (5)- المسيري (عبد الوهاب) وآخرون، المرجع السابق، ص67.
- (6)- حاج مراد (مولاي)، مكانة التحقيق الميداني في الدراسات الأنثروبولوجية، أعمال الملتقى الوطني "أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر"، تميمون، 24، 23، 22 نوفمبر1999، منشورات المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، 2002، ص23.
- (7)- سنوسي (صليحة)، إحصاء مناقشات رسائل الدكتوراه والمجستير بقسم الثقافة الشعبية بجامعة تلمسان، مجلة التراث، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، هران، العدد الخامس، 2005، ص86.
- (8)- المرجع نفسه، ص86.
- (9)- حاج مراد (مولاي)، المرجع السابق، ص22.
- (10)- اربي (بيار)، إثنولوجيا التربية، ترجمة عدنان الأمين، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1992، ص41.
- (11)- للتعمق أكثر في جدلية التلازم بين الأنثروبولوجيا والاستعمار انظر على سبيل المثال لا الحصر:
- Bonte (pierre)et Izard(Michel),dictionnaire de l'ethnologie et de l'anthropologie , puf, paris,2édi, 2002,p160-161. -Lombard (jaque), introduction à l'ethnologie, Armand colin, paris, 1999, p18-23
- (12)-Lucas (Philippe)et vatin (Jean claud),l'algerie des anthropologues, François maspéro, paris, 1975,p278.
- (13)- من ضمن هذه النماذج على سبيل المثال نجد كل من:
- ليفي ستراوس (كلود)، الإناسة والبنائية، ترجمة قبيسي حسن، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1995.

- غراويتز (مادلين)، مناهج العلوم الاجتماعية، ترجمة سام عمار، المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر، دمشق، ط1، 1993.
- (14) - ارني (بيار)، المرجع السابق، ص164.
- (15) - Lombard (jaque), op, cit, p9-10.
- (16) - Bonte (pi  re) et Izard (michel), op , cit, p794-795.
- (17) - للإطلاع أكثر على السياق التداولي لمصطلح الأنثروبولوجيا في المدارس الغربية انظر:
- Lombard (jaque), op, cit, p10-13.
- (18) - حاج مراد (مولاي)، المرجع السابق، ص24.
- (19) - حد  د (مهنا يوسف)، غياب التصورات الأولية لدى الباحثين في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في البلاد العربية، مجلّة عصور، دارالمترىخ للنشر، الرياض، المجلد الثامن، الجزء الثاني، 1993، ص341.
- (20) - سبقت الإشارة إلى حداثة الترجمة الجزائرية في مجال الأنثروبولوجيا.